دراسات تاريخية ادبية

«الغزل في شعر مزيد الحلّي الأسدي»

بقلم عارف ناصر

.. بالامس وعلى صفحات مجلتي « الاديب والحكمة » اللبنانيتين تحدثت عن شاعر عربي كبير طمست الايام على اثاره الادبية ، وفارس من الفرسان صال وجال في حلبة الشعر والادب ، واميرٍ من الامراء العربقين تربع على عرش الفريض في عصر من عصور التاريخ ساده الاظلام والانحطاط . هذا الشاعر هو « الامير مزيد الحلّي الاسدي » الذي قدمته يومئذ كشاعر مبرز سار في الطليعة وحاز قصب السبق ووصل الى الذروة ولم ازد على ذلك لان المصادر الشعرية لم تكن متوفرة لي انذاك لاستكمال الحديث وايفاء الموضوع حقه وايراد الحوادث الثابتة والشواهد الدامغة والتوسع في البحث وطرق كافة الابواب والنواحي ذات الصلة المباشرة بحياة هذا الشاعر المبدع وعهده الادبي المشرق وفنه الشعري الاخاذ. وها اني اعود الآن بعد ان تعمقت بدراسته وعرفت كل شيء عنه لاتحدث عن موضوع هام يلعب دوراً رئيسياً في حياته الادبية ،ويلقي ضوءا مشعاً على نقطة حساسة مجهولة اكتنفها الاهمال والنسيان وهي :« الغزل في شعره » واني قبل ان ابدأ بالتحدث عن هذه الناحية الادبية الهامة لا بد لي من تقديم عرض تاريخي موجز عن الوضع السياسي في تلك الفترة المضطربة المظلمة المنصورة التي عاش فيها «مزيد» وما كانت عليه بلادنا قبلها وبعدها معتبراً هذا العرض مقدمة للدخول في الموضوع الذي انا بصدده .

غير خاف على كل مهتم بالتاريخ الشرقي ومتتبع للدراسات الاسلامية ان منتصف القرن الرابع للهجرة المحمدية وما يليه كان عهداً عنيفاً بحوادثه وتقلباته ومفاجئاته ، مضطرباً اشد الاضطراب ويكاد يكون منعدماً من اي اثر لاثار الهدوء والاستقرار والاطمئنان ، فالرئاسة العليا كانت موضع اخذ ورد تتنازعها دولتان كبيرتان يقوم على راس كل منهما زعيم سياسي كبير

اتخذ لنفسه صفة دينية تلزمه بخلافة المسلمين واقامة الخطبة الدينية في المساجد والمعابد باسمه والزامه بكافات الامتيازات والصفات التي يتطلبها هذا المركز الخطير فالدولة الاولى كانت « العباسية » ومركز عاصمتها بغداد ، والثانية « الفاطمية » وعاصمتها القاهرة ، اما الحوادث التاريخية الهامة التي وقعت في كلتا الدولتين خلال تلك الفترة فتلخص بما يلي :

انقسام خطير في الدولة العباسية بين القائم بالله العباسي الخليفة السادس والعشرين والقائد العام للجيوش العباسية « ابو الحارث ارسلان البساسيري » الملقب « بالمظفر » الذي يقال انه ينتسب الى امراء بني بويه الشيعيين واضطرار الخليفة العباسي للاستنجاد بالقائد السلجوقي التركي الاصل « طغرل بك » وفي هذه الاثناء يفد داعي دعاة الدولة الفاطمية « المؤيد في الدين » هبة الله الشيرازي او « لورنس الفاطميين » كما اسميه الى العراق للاتصال بالبساسيري وتشجيعه على ثورته ويضع تحت تصرفه جميع الامكانيات المادية والمعنوية التي تكفل له التغلب والانتصار على العباسيين وحمله على مواصلة القتال ثم اغراء القبائل العربية المجاورة على شق عصا الطاعة والثورة على نظام الحكم العباسي تحت تأثير الاموال الكثيرة والهدايا والخلع التي كان يغدقها المؤيد على الزعماء والشيوخ والامراء بلا عد او حساب وفي هذه الفترة يستولي « ثمال بن صالح بن مرداس « تاج الامراء » على حلب ويباشر حرباً شعواء مع (منيع بن شبيب النميري) صاحب حران بشأن الرقة ، اما البيزنطيون والسلجوقيون فيوقعون معاهدة صداقة وتحالف تقضي بغزو املاك الدولة الفاطمية في الشام واعالي الجزيرة بينما ينضم الى جيش البساسيري بتوجيه المؤيد في الدين كل من الامير نور الدين بن دبيس بن مزيد امير بني مزيد الاسديين وصاحب (الحلة) العراقية وهو جد شاعرنا الكبير وقريش بن بدران العقيلي ، مضافاً الى كل ما ذكرناه نشوب معركة سنجار الكبرى ودخول جيوش البساسيري بغداد والموصل والكوفة وواسط واعلان الخطبة باسم الامام الفاطمي المستنصر بالله وقد ظلت الخطبة قائمة ببغداد مدة تزيد على العشرة شهور ثم ضرب السكة باسمه وانشاد الاذان الفاطمي « حيَّ على خير العمل » ولقد اقدى ايضاً الخليفة العباسي القائم عن بغداد بعد ان وقع صك التنازل وانتزعت عمامته وشرفة من قصره وبردة النبي وارسلوا جميعهم الى القاهرة اشعاراً بالظفر ، وفي

هذه الاثناء يستخلص القائد الفاطمي « ابي علم بن ملهم الخويلدي » حلب من ثمال بن صالح بن مرداس ، واخيراً وبعد كل هذه الانتصارات يدب الانقسام في جيوش البساسيري الى شيع واحزاب وتذر الطائفية والعنصرية بقرنها معلنة الفتنة العمياء مما مهد « لطغرل بك » الانتصار على البساسيري واجباره على الهرب ، اما المؤيد في الدين فقد عاد الى القاهرة فاشلاً .

بينما كل هذا يجري في بغداد كان الاضطراب قد اخذ ينذر القاهرة مهدداً بارخم العواقب فتختل شؤون الوزارة ويتتالى الوزراء واحداً بعد واحد فمنهم من يمكث فيها شهوراً ومنهم من كانت مدة وزارته اياماً ومنهم من يمكث يوماً واحداً الى ان استدعى الامام الفاطمي المستنصر بالله « بدر الجمالي » وكان حاكماً عسكرياً في عكاء وفوض اليه جميع الامور ، وفي الوقت نفسه كانت امصار الفاطميين بافريقية تمتنع عن تأدية ما عليها من ضرائب وتعلن استقلالها لتعود الى طاعة العباسيين وتتحرك قبائل بني هلال وسليم العربية النجدية الاصل من مصر العليا نحو الغرب لتعيث فساداً في طرابلس وتونس مدة طويلة ويغشى النورمانديون صقلية وكانت من املاك الفاطميين،وفي الشام كانت الحالة في شبه فوضى والولاة والوزراء لا يكاد احدهم يستقر فيها حتى يخرج معزولاً او مدحوراً والامور تزداد سوءا واهل البلد احزاب يثورون بالولاة والقواد ثم تتأجج نار الفتنة ويثور اهل دمشق بامير الجيوش بدر الجمالي حاكم الشام فيضطر للخروج من قصر الامارة والنار تشتعل فيه وكان هذا العمل بداية تشير الى زوال حكم الفاطميين عن الشام ، وفي هذه الفترة نفسها ايضاً يتم استيلاء « معلى بن حيدرة الكتامي » على دمشق ويضطر للهرب بعد ايام من دخوله بسبب الفتنة التي وقعت بينه وبين عساكر المدينة وتقطع ايضاً خطبة الفاطميين نهائياً من الشام ، كما ان القدس تفتح من قبل « اتسز بن اوق الخوارزمي » وهو احد امراء السلجوقيين ثم يظهر فشله عند محاولته فتح الشام ويبدأ الصليبيون زحفهم باتجاه القدس ويتم فتحهم لمعرة النعمان وانطاكية وتتم هزيمة الجيوش الفاطمية بقيادة « الافضل بن بدر الجمالي » بجوار بيت المقدس عائدة الى عسقلان ثم الى مصر ، واهم من كل ما ذكرناه وفاة الخليفة الفاطمي الامام المستنصر بالله واندلاع الفتنة الكبرى بعده بين ولديه نزار والمستعلي بسبب الخلافة ثم محاصرة نزار والقائد افتيكين في

مدينة الاسكندرية بعد هربها اليها من قبل الافضل بن بدر الجمالي امير الجيوش وخال المستعلي لجهة والدته وانقسام الاسماعيلية الى فريقين فريق النزارية وعاصمة ملكه «الموت[1]» في فارس وعليها « الحسن بن الصباح » ويؤلف اقطار العراق وسوريا والعجم، وفريق المستعلية وعليها « الافضل بن بدر الجمالي » ويؤلف مصر واليمن والهند، وتتمخض السنين فيستلم زعامة النزارية الاسماعيلية بعد نزار ولده « الحسن » ثم « محمد » وفي هذه الفترة الغامضة جداً يفد الى سوريا « راشد الدين سنان» شيخ الجبل ليتسلم شؤون رئاسة الدعوة الاسماعيلية في بلاد «قلاع الدعوة» وجبال السماق، ويترك امارة (حلة بغداد) قاصداً بلدة « مصياف » السورية امير من امراء قبيلة بني اسد العربية التي كانت تعتنق مبادىء الشيعة الامامية ليقيم فيها بقرب سنان وليساهم ببناء القلائع التي لعبت الدور الهام في الحروب الصليبية هو الأمير مزيد الحلي الاسدي القائل بقصيدته الطويلة اثناء الرحلة .

ولما وصلنا ارض شيذر صدّنا ... سيل من العاصي شديد التهجم
فقمنا بعون الله نقطع موجه ... كما فلت في الترب كف المنجم
وسرنا الى مصياف سيراً كما سعى ... الى البيت قوم من قريش وجرهم
وقد نذر الرحمن اطهار سندس ... على كل ورد بالرياض معمم

اما الحوادث التاريخية الهامة التي حدثت بعد مجيء مزيد الى سوريا واستقراره بقلاع الدعوة الاسماعيلية فاليك اهمها :

زوال ملك العاضد الفاطمي نهائياً عن القاهرة على يد صلاح الدين الايوبي ، ثم موت نور الدين الزنكي الشهيد واستلام ابنه الصغير الملك الصالح شؤون الملك واقامته في حلب وفي هذا الوقت يبدأ تسرب الصليبيين الى المواقع الهامة في طبريا والكرك وعكا، وحيفا، ونابلس وعسقلان ثم اعلان الخطبة في المدن السورية باسم « المستضيء العباسي » بامر من صلاح الدين وارجاع وثيقة التخلي والعهامة والبردة للعباسيين وظهور « الاسماعيلية » في فارس كدولة كبيرة مرهوبة الجانب وفي سوريا كامارة عظيمة يقوم على رأسها «سنان راشد الدين» ومحاصرة (مصياف) عاصمة الاسماعيلية من قبل صلاح الدين ثم تنازله الى عقد معاهدة صلح

١) المصادر الاسماعيلية السورية الاخيرة تثبت ان كلمة « الموت » اشتقت من « مات – يموت » وليست « ألموت » كما جاء بمصادر اخرى .

مع الاسماعيلية وزحفه الى الارض المقدسة مارًا ببصرى الشام بعد ان وافاه جيش مصر ثم مهاجمة عكاء من قبل ولده « الافضل » ونشوب معركة حطين والقدس وانتصار صلاح الدين فيها واحتلاله لصيداء وبيروت وجبيل وجميع المواقع الواقعة على الطريق حتى القدس وبعد هذا واخيرًا زحف صلاح الدين على الشاطئ السوري مبدأ شطر انطاكية . في هذه الفترة من الاحداث الجسام عاش شاعرنا الملهم الرقيق « الامير مزيد الحلي الاسدي »[1] وفي هذا العصر المضطرب المتقلب نظم اكثر قصائده والحقيقة التي لا مجال للريب فيها ان تلك الفترة وما بعدها كانت من اشد الفترات حلكة واعنفها اظلامًا واعظمها اثرًا من الناحيتين الفكرية والتاريخية ويكفي ان تعلم انها فترة الحروب الصليبية وعهد صلاح الدين ونور الدين الشهيد وسنان راشد الدين او فترة الصراع ما بين الشرق والغرب فاذا عرفنا ذلك ادركنا لاول مرة اية اهمية تاريخية لها بنظر العلماء والمؤرخين وعرفنا ايضًا بان التعرض لبحثها من الامور المعقدة الشائكة التي قلما يجتازها الباحث بسهولة لان هناك في تاريخ الفلسفة الاسلامية ناحيتين قلّما أمن الباحث في مسالكها من الخطأ وهما الاسماعيلية وعهد الحروب الصليبية ، ومهما يكن من امر فقد عرفت الدعوة الاسماعيلية الهادئة شعراء كثيرين لعبوا ادوارًا هامة في الحياة العلمية والادبية والعقلية وصالوا وجالوا في مختلف ميادين الشعر والادب حتى اصبح لهم القدح المعلى وحتى تمكنوا من انتزاع قصب السبق في كافة الادوار والفترات ، ولقد دبّجوا القصائد الطوال وصنّفوا الكتب العديدة التي جاءت جميعها زاخرة بانفس الاشعار واطيب الاقوال، واذا كانت الدعوة الاسماعيلية الهادئة قد عرفت او بلغة اصح قد اطلعت شعراء مبرزين كالخيام والمعري وابن هاني الاندلسي والامير تميم بن الامام المعز لدين الله الفاطمي والمؤيد في الدين الشيرازي وعمارة اليمني وجلال الدين الرومي ، والحرستاني والبصري والطيبي والاسكندراني وابي حصينة المعري والعقيلي وناصر خسرو وغيرهم ممن تأثروا بالاسماعيلية كالمتنبي والشيرازي والفارض وابن حيوس ، فانه ليكون موضع الاعجاب والفخر ان يضاف الى سجل كل من ذكرناهم من الشعراء الاسماعيليين الخالدين شاعر مقدور او امير شعراء مجهول

١) راجع كتابنا سنان وصلاح الدين ، ١٩٥٦

لم ينشر من شعره كما ذكرنا الا ابيات معدودة على صفحات مجلتي الحكمة والاديب هذا الشاعر هو الامير مزيد الحلّي الاسدي شاعر الدعوة الاسماعيلية الهادية في منتصف القرن الخامس الهجري الذي نقدمه الان معلنين اسفنا العميق واستغرابنا لاغفال اسمه وعدم التعرض الى ذكره في كتب التاريخ والادب الذي وضعه بروكلمن وستروتمان ، وريتر او حاجي خليفة في كتاب كشف الظنون او ايفانوف او فيضي او ماسينيون او محمد كامل حسين ، او برنارد لويس او غويارد او جيب او كوربان وغيرهم ممن بحثوا في الادب الاسماعيلي وتاريخه وجالوا في هذا المضمار .

هو الامير مزيد بن صفوان بن الحسن بن منصور (بهاء الدولة) بن دبيس (نور الدولة) بن علي بن مزيد الاسدي (ابي الحسن) بن الامير مزيد الحلّي الاسدي الكبير صاحب الحلة العراقية التي ذكرها ياقوت الحموي في كتابه معجم البلدان وقال عنها : انها مدينة في ارض بابل ووصفها المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي داعي دعاة الامام الفاطمي المستنصر بالله بانها مدينة على بعد ستين فرسخاً من بغداد وتسمى ايضاً « الجامعين » و(الفيحاء) و(زورة بابل) وقد عرفت هذه المدينة وخاصة بانعبد العباسي بانها عاصمة امارة بني اسد العربية او امراء بني مزيد وكانت تدعى ايضاً « حلة بني مزيد » نسبة لهذه الاسرة العربية العريقة التي استوطنتها وحكمتها مدة تزيد على المائتي عام اي منذ سنة ٣٠٣ هـ الى ٥٤٥ هـ اما اسرة بني مزيد هذه فقد عرفت بتشيعها للفاطميين منذ عهد بعيد بالرغم من وجودها في قطر يخضع للخلفاء العباسيين وقد جاء بالمصادر التاريخية الموثوقة ان هذا التشيع ازداد وضوحاً وقوة في عهد القائم العباسي المعاصر للامام المستنصر بالله سنة ٤٣٨ هـ حينما اوفد الخليفة الفاطمي الآنف الذكر داعي دعاته المؤيد في الدين هبة الله الشيرازي للبلاد العربية ليحمل القبائل العربية فيها على شق عصا الطاعة على الخليفة العباسي وتأييد القائد البويهي المتشيع (ارسلان البساسيري ابي البركات) وجاء ايضاً في ابن الاثير انه عندما احرق ضريح الامام موسى الكاظم وحفيده محمد بن علي الجواد وقبور بني بويه وقبر موسى بن جعفر ومحمد بن علي انتهى الخبر الى نور الدولة دبيس بن مزيد فعظم عليه واشتد حزنه وبلغ منه كل مبلغ لانه وادل بيته وسائر

عمالهم كلهم من الشيعة ، وجاء ايضاً بكتاب المؤيد في الدين الشيرازي الى دبيس بن مزيد عندما كان يستنفر القبائل العربية لحرب العباسيين ما يلي :

والله لقد غمّني في سيدنا ان تكون هذه الافعال عن مثله تصدر وهذه الاخبار عنه تؤثر وتنشر وقال : ايستحق منك يا شيخ العرب ان تجازيه هذا الجزاء ولو انه من بني يزيد بن معاوية الذين تبرأ منهم فضلاً عن بني علي عليه السلام الذين تتولاهم . وجاء بالعهد الذي كتبه المؤيد في الدين داعي الدعاة هبة الله الشيرازي للامير دبيس بن مزيد ما يلي : ولما استقر بحضرة امير المؤمنين عليه السلام ما حباك الله به من كرم الاعراف وكونك بالولاء لاهل البيت عليهم السلام لمة في العراق ، وجاء بالعهد المذكور ان الامام المستنصر بالله قد لقب الامير دبيس بن مزيد بالامير سلطان ملوك العرب سيف الخلافة « صفي امير المؤمنين » ، وجاء ايضاً بابن الاثير : ان موقعة سنجار كان على راسها البساسيري ونور الدولة دبيس بن مزيد وعلى راس الفريق الثاني قريش بن بدران صاحب الموصل وقتلمش ابن عم (طغرل بك) وسهم الدولة ابو الفتح بن منرو وقد انهزم قريش بن قتلمش وجاء ايضاً بان نور الدولة الامير دبيس بن مزيد وقد عاش (٨٠ عاماً) كان فيما اميراً نيفاً وستين وكان ابن مزيد هذا من اكابر امراء العرب ومن حماة الشيعة وجاء بابن الاثير ايضاً وايضاً بان ابنا الامير دبيس بن مزيد وهما منصور وبدران وحمّاد قد اسروا قرب الكوفة بالمعركة التي نشبت بين خمارتكين الطغرائي والبساسيري وجاء بالمصدر نفسه ان دبيس بن مزيد قد زوّج ابنه الامير منصور « بهاء الدولة » من ابنة ابي البركات البساسيري نفسه .

ولد الامير مزيد في حلة بغداد سنة ٥٣٨ هـ وعاش وتوفي في بلدة مصياف السورية سنة ٥٨٤ هـ ولا يزال ضريحه قائماً فيها للان بجانب ضريح سنان راشدالدين في جبل مشهد ، اما سيرة حياته فسنكتب عنها فصلاً طويلاً جامعاً في ديوانه الذي نعده الان للطبع وميا يكن من شيء فقد اصبح واجباً وضرورياً علينا بعد تقديم هذا العرض التاريخي الوجيز الانتقال الى موضوعنا وتقديم مزيد الحلي كشاعر غزلي فنقول :

ان اهم خصوصيات الشعراء المجيدين الملهمين التي تجعل شعرهم مؤثراً في

القلوب ومقبولاً لدى الافهام قوة بيانهم وجودة كلامهم ورقة انغامهم . فكلما كان بيانهم ناصعاً وكلامهم واضحاً وقوافيهم سلسة ناعمة كان تأثيره اعظم ، فهم في هذه الاحوال يستميلون اليهم السامعين ويهزون كيانهم ويحركون عواطفهم ويملكون مشاعرهم فيديرونها حيث يشاؤون والفوز الذي يحصل لمثل هؤلاء الشعراء عظيم لا يكاد يوصف ومزيد كما سترون من جملة هؤلاء . فمن القاء نظرة على شعره وسماع قوافيه يتبين ان ما وصفناه ينطبق عليه فهناك قوته البيانية وقبضه على عنان الكلام والسهولة شعره وخلوصه من التعقيد والتكليف وهذا ما يجعل الذهن يتقبله بسرعة وبدون ادنى كلفة او ازعاج ويجبر قيثارة النفس ان تستجيب له ملء الاعماق .

الا كم الوم النفس عند ادكاركم ... وحتام اخفي ما الاقي واكتم
وفي كبدي للبين ناب وغاب ... وحولي نسور للحوادث حوم
وكم ليلة قضيت فيها مآربي ... اعانق ربات الخدور والثم
وكنت انادمه وقد غاب الكرى ... الا فاسقني خمرًا من الدن تصدم
ودرها لنا لا عيش الا بشربها ... اذا لاح ضوء الصبح او هبت انسم
شمسة جلت على كل عاشق ... لبيب وان كانت على المرء تحرم
تراءت فلا تدري مصابيح راهب ... تلوح او انقضت من الافق انجم
وبرقها الساقي فلست بعارف ... ايلزمها بالكف ام ليس يلزم
هي الشمس في الدوران والدن برجها ... وشرقها كاس ومزجها فم
اذا برزت خرت لها الناس سجدًا ... ويحرق من بعد السجود لها دم

ففي هذه الابيات نلاحظ الفن في السبك والاجادة في التأليف والبراعة في التركيب والتوازن بين المصراع الاول والثاني، اجل ... نلاحظ شعرًا مطبوعاً سالماً من التكليف بريئاً من الاستعارات البعيدة والتشبيهات غير المألوفة ونشاهد وصفاً لمجالس الانس والطرب والخمرة قلّما سبقه اليه شاعر ففيه التشبيه الأخّاذ والرقة المتناهية والابتكار الجديد والتفكير البعيد المدى .

ومهفهف متوشح برّدًا ... لا ينجز الميعاد ان وعدا
لو لم امدّ يدي الى يده ... لمشيت منه ان يمد يدا
ارسلت ثم قعدت ارقبه ... واقول سوف يعود حين بدا
حتى اذا حمي الهجير بنا ... نصف النهار وطال بي امدا
سليت قلبي ثم قلت له ... ان لم يكون اليوم كان غدا
لو انّ من في الارض ينزلني ... ما رام قلبي سلوةً ابدا

وهنا نشاهد الفصاحة والجزالة والاستواء والارتباط وعدم التفاوت والسمو بالالفاظ والتشبيه والمتانة تتجلى باجلى مظاهرها مع رقة متناهية تنساب انسياب الجداول في الاودية الوارفة ذات النخيل والورود والرياحين .

اما والهوى لو عندها بعض ما عندي ... لما هجرت لكنما وجدها وجدي
لها جسد بالوهم يدنو وقلبها ... على لينه اقسى من الحجر الصلد
وحق الهوى لو استطيع اذا مشت ... لابسط ذلاً تحت اقدامها خدي

وهنا تظهر ايضاً البلاغة في الاسلوب والصناعة في البيان والصنعة اللفظية والبديع والثقافة العامة مع الجزالة الرقيقة المنسكبة بدون شعور .

وشادنٍ اقديه لو يفتدي ... عليٌّ في حكم الهوى يفتدي
مدحته قال فمن ذا الذي ... غدحه ؟ قلت له سيدي
فهو الذي اغرق اهل الهوى ... في حبه في لجج مزبد
ارق من مشمومه جسمه ... وقلبه اقسى من الجلمد
والحب قد تاه اناس به ... واثموا في اثر المتدى
لو عاينوا الابيض من ثغره ... ما يمموا للحجر الاسود
فالورد من وجنتيه اجتنى ... وثغره كالاقحوان الندي
ووجهه كالشمس شمس الضحى ... وقده كالغصن الاميد
وعينه تشبه عين المها ... كانما تكحلت بالاثمد
حلفت بالاب والابن معاً ... ثلاثة كنا على موعد
اني لاشتاقك يا سيدي ... كالماء يشتاق اليه الصدي
باس يدي قلت له بس في ... ان في اولى جا من يدي
قال من الجائر في حكمه ... قلت الذي جار على مزيد ؟
قال فهل تمشق غيري اجب ؟ ... او يورد الظمآن من موردي ؟
قلت له لا والنبي الذي ... به الى رب العلى صندي

وهنا لا يسعنا الا الوقوف خاشعين امام فصاحة في الالفاظ واشراق في الديباجة ، وجزالة في القوافي من غير اغراب ولا ادخال وامام مفردات ليس فيها وحشي او مستكره عمل شاعرنا الملهم على التفتيش عنها والتنقيب عليها وصوغها ، فهي والحقيقة من وضع شاعر ماهر بصنعته حكيم رصين بتفكيره . وهل يمكن ان يكون اجمل من هذا التناول ؟

قال فهل تشتق غيري اجب او يورد الظمآن من مرردي ؟
قلت لـه لا والنبي الذي به الى رب العلى تهتدي ؟

الا تشعر معي وانت تقرأ هذه الابيات المليئة بالتذكر والحنين الى ماض عزيز من العمر ورفاق في موطنه الحبيب شاطروه صفاء العيش ومرحه وفراق الاهل والاحباب والمرابع ومسارح الصبا ومعاهد الانس انك امام شاعر ينبجس الشعر بين يديه ويفيض صافياً رقراقاً والشاعر الشاعر بالحقيقة من استطاع ان يكشف عن نواحي مستورة في نفسه ويصوغها في قالب رقيق وفي صورة جميلة تهز اعماق الكيان ويحوّلها الى صوت حسن ونغم بري. يسري في النفس ويجري في العروق فيصفو له الدم ويرتاح له القلب وتنمو له النفس وتهتز الجوارح امام الايقاع الموسيقي والجمال التصويري .

يا سعد ان جزت بوادي الاراك فانشد قليباً ضاع مني هناك
او زرت غزلان النقا سائلاً هل لاسير الحب منهم فكاك
وان ترَ ركبا بوادي الحمى فانشدهم عني ومن لي بذاك
نعم سروا واستصحبوا ناظري والان عيني تشتهي ان تراك
ما فيَّ عضو لا ولا مفصل الا وقد ركّب فيه هواك
عذبتني بالهجر بعد الجفا يا سيدي ماذا جزائي بذاك ؟
فاحكم بما شئت وما ترتضي فالقلب لا يرضيه الا رضاك

وهنا ننتقل مع مزيد في خواطره لنقف امام شاعر قريب الى القلب تعجب بقوافيه وانت تسمعها وقد امتلأ قلبه بالمحن والآلام وتقلبات الدهر وتظاهر عاطفته وقد صبغت شعوره بالآلام، وذهب به خياله في التصوير الفاتن الباسم الوضّاح ، فيخرج الصور الرقيقة الجذّابة وتشعر بتلهف وحنين اليه وهو يصف موطنه الاول « الحلة » رغم انه كان في بلد امين يعيش فيه مستقرًا هادئاً عزيز الجانب موفور الكرامة يخشاه الناس ويرهبون جانبه .

اسالَ دموعي هجرها وهو ممن وانحف جسمي خصرها وهو ناحف
وامرض قلبي جفنها وهو ممرضي وادلف طرفي طرفها وهو دالف
تودّعني والبين يلعب بيننا ولا قلب الا وهو للبين راجف
وحالت صروف الدهر بيني وبينها الا انَّ من يغترَّ بالدهر تالف
وكنت قبيل البين ارشف ريقها فها انا بعد البين للدمع راشف

وكنت البغا للسرور بقربها فها انا للاحزان والهم آلف
فيا دهر هل بعد التفرق رجعة فيهتف بي للوصل يا دهر هاتف
وتسعدني (بالسعدنين) احبتي وتجمعني (بالجامعين) معارف

اجل وهنا عليك ان تقف معي ايها القارئ العزيز وتطلب ترديد هذا البيت :

وكنت قبيل البين ارشف ريقها فها انا بعد البين للدمع راشف

الا ترى معي ان فيه ابتكاراً جديداً وصوراً فتّانة جذّابة جميلة ؟.. الا تشعر معي برقة الاسلوب وبوجود البديع اللفظي يحلّيه هذا الشاعر المرهف الحس على كل بيت من ابياته ... الا تشعر معي ان قوافيه تدخل في اعماقك وانت تقرأها ؟.. الا تشعر معي بانها تهز كيانك وتحملك وتقربك الى عالم من الجمال والاحلام ؟

سقى الجنينة ذات المنزل الرحب بغامر المزن من هطالة السكب
دار نعلوة قدما كنت اعهدها والعيش غضا وشملي غير مغترب
ايام كنت بها الهو وبي طرباً مع الغواني فيا ناهيك من طرب
هيفاء لقّاء مياس يميد بها غضّ كالغصن في دلّ وفي عجب
علقتها والصبى غض يرونقه كاؤلؤ النظم في سلك من الذهب
مسّرة الذيل في عز وفي دعة ما بين اهل وملك وافر النسب

وهنا الا تلاحظ معي بل الا ترى الرقة والسلاسة والعذوبة تنساب انسياب المياه في الجدول الرقراق ؟.. تعال معي ورددّ قوله :(دار نعلوة قدماً كنت اعهدها والعيش غضاً وشملي غير مغترب) وقوله : ايام (كنت بها الهو وبي طرباً : مع الغواني فيا ناهيك من طرب) ... الا تحكم معي بانها تذخر بعاطفة وثّابة تدخل الى الاعماق لتسكر القلب وتطرب الروح ؟

صاح كل الفراق حتم علينا ليت شعري متى يكون اللقاء ؟
ما لليلي كانه الصبح في اليقظة والصبح ليلة ليلاء
اشرب الشوق والهموم بكأس مترع والنجوم لي ندماء
وبنات الهويل تبدي غناء فيزيد الغرام ذاك الغناء
ليس موتي بعد الفراق عجبا عجب كيف لي عليه بقاء
من يشط الفرات هل يسد الدهر على البين او يبين القضاء
ويعود الشمل الشتيت كما كان وتنأى الهموم والبرحاء

ليت لي نظرة اليكم على القرب وهيهات ان ترى العنقاء
والى شامخ النخيل فيطفي نار قلبي (بالسيبانة) ماء
حين لا خوف في زراه وفيه كل بيض الظبى نقي الظباء
والهوى طائع وقد هبّت عليه من الشباب هواء
لا يبيق (العقيق) داري وليت تسني في نواصل ابداء

قف معي وتأمل قوله للديار التي اقفرت من السكان وكانت بالامس مواطن للخلان والندماء ومرابع للاهل والاحباب :

من بشط الفرات هل يسعد الدهر على البين او يمين القضاء ؟
ويعود الشمل الشتيت كما كان وتنأى الهموم والبرحاء ؟

قف معي نستعيد ونعجب ونطرب... شعور يصوّر لنا الحياة ... وشاعر يعزف على اوتار البيان بريشة الحاذق الماهر ... واناشيد تُرَف زاخرة بالرقة والجزالة والعذوبة والسلاسة الصافية ... والوان من البلاغة رفّافة ناعمة يرسلها شاعر عاش في كنف البقرية المبدعة وتفيأ في ظلال التربية البكر ، ويصوغها بقالب شعري جذّاب فاذا بها تتحول الى نغم حنون يملأ الكون عطرًا وبهاء وسنى.

دمنٌ بين كاسر والرآب خاليات من زينب والرباب
جثتها والدمع ينهلّ من الاماق بين المطول والنكاب
واقفًا بالديار وهي خلاء وقفة الموسوي بالسرداب
اترجّى رجع الجواب وانّى لرسوم الديار رجع الجواب
ربما لي من لوعة واكتئاب اتشكّى وليس تعلم ما بي
ربَّ ليل بادرته فيدالي بدره من هوادج وقباب
وخمار لمحت فيه فلاحت شمسه تحت برقع وتقاب
وغزال اومى الي فبانت لي نفا الماج حمرة العناب
فتجشمت ذلك الليل حتى كنت من بدره المنير كقاب
وطويت النهار ثم ترشّفت من الشمس باردًا من رضاب
وذبحت الغزال ذبحًا بسكين شبابي في روض عصر التصابي
يا لقومي من (آل كلية) ما لي لا ارى لي غيثًا في قباب
انتم خير من اقيم عليه عمدًا مشرفًا على أطناب
ان سطا المخطب كنتم ماء مزن او دعا الحرب كنتم اسد غاب
رمت صبرًا عنكم فاعوزني الصبر فهل لي اليكم من اياب

وزجرت القلب القريع عن الشوق فيأبى بلوعة واكتئاب
لا ومن انشأ البرية خلقاً ذا انتقال من نطفة لتراب
ما تباعدت عنكم لملال ليس لي رغبة الى الاغتراب
غير ان الحسام لا يستطيع القطع الا مفارقاً للقراب

وهنا تأبى الحقيقة الا ان نقف واياها وجهاً الى وجه فنحن مهما ازددنا قراءة لهذه الابيات فلا تزداد الا تعلقاً بها وشوقاً الى اعادة قرائتها واذا عمدنا الى ذلك فلا يدخل الى نفوسنا الضجر والملل ولا نسأم لاننا نشعر انه كلما حاول السأم ان يقترب منّا طلع علينا شاعرنا المرهف الحس بصورة جديدة جذّابة ابعدت هذا السأم عن نفوسنا .

سروا ورواق الدجى ممتم خيال لحسناء مستكتم
بذكرني ليالي الوصال فهام به المدنف المغرم
ولست بناس لايامها ولا لودها ابداً
فتاة اذا برزت ينجلي بأنوارها الزمن المظلم
تنشي ذوائب من شعرها ثمان الى اربع تقدم
وتسدل سبع ستور لها على وغم فرعها المحرم
واصلت من طرفها صارماً كما يصلت الصارم المخذم
وتقتل في الحب من رامها وقتل المحبة لا يؤثم
احساء كم ليلة قد بثت رسولا زيد به اللوم
فحيت على بغتة الكاشحين اليك واعينهم نوم
ولو عاينوك لهزوا الرماح وسأوا الصفاح ولكن عموا
برزت اليهم فلم يعلموا وقلت كلاماً فلم يفهموا
وقالوا بانك عجوبة وعجوبة انت بل عنهم
دعوت فلباك مني الضمير وقبل ارضيك مني الفم
واعطت فيك بفراط الغرام وقلبي بتقصيره يفهم
فطوبى لمن هواك اهتدى ومن بوصالك لا يحرم

مقاطع جديرة بالوقوف والتأمل ، وصور حية شفّافة مليئة بعناصر الجمال غنية بالعواطف والذوق الهادي والبعد عن الحشو الممل والتكرار المسف ... مقاطع اذا وقف الانسان امامها ليستعرضها حملته الى عالم الجمال والخيال لتريه الصور الفنّانة والمشاهد البرّاقة التي يتراءى فيها امتزاج الالحان في المناظر البديعة وفي القلب الحزين والجدول الباكي ودموع الفجر وأفق الامل .

يا خليليَّ خليَّـاني وشأني انا ارعى بنار وجـدي صليَّا
انَّ لي بالعراق دمعًا مطيعًا وفؤادًا صبـًا وصبرًا عصيا
انا في هجرهم وصلت سهادى فصلاني او اهجراني مليَّـا
انا في عازلي وحبي وقلبي حـائر ايهم اشد عنيًّا
انا شيخ الغرام من جندي بي اهده في الورى صراطًا سويًّا
انا ميت الهوى ويوم اراهم ذلك اليوم يوم ابعث حيـا

اننا ايضاً امام قصائد خالدة جديدة في التصوير وقوافٍ رائعة عطرة ندية بليلة عابقة بالعبير يطلع علينا بها شاعرنا الملهم فيودع فيها روحه العالية وما يلتهب بين جوانحه من رقة صادقة رقيقة وعذوبة خالصة يصوغها وينفثها سلسلًا باردًا ونغمًا عاطرًا فيه الاماني والاحلام .

ولها من الليل البهيم ذوائب جثل يزين رسلهـا التجعيد
ومرجّح في وانح فكانه نون جامش رقمة ممـدود
ولها من الصبح المنير وضوئه وجه بلا كلف ولا تخديد
ولها محاجر مقلة من نرجس ولها من الورد الطري خدود
ومن الما نحر يزينه الحيـا قـد كمّلته مراسل وعقود
ولها من البرد الصفين ترائب ولها من العاج النقي نهود
ولها من الغصن المكرم مرفق رسب ومن طبي الغلاف زنود
ومعاصم معصومة عن ذي اجتنا وانامل مثل الاصابع غيـد
ومن السنى حصن وعضو ناحل يعلو عليه ردفها المقـدود
ولها من الفخذ الرخيص مدملج ساق وكعب ارغم مزدود
ويزينها قـدم لطيف ماله اثر يفوق على الثرى موجود
اتعود ايامي بزورة بابـل هيهات ايام مضت اتعود؟
(والحلة) الغيحاء فيها طينتي دار بها اضحى الندى والجود
ايام اسحب في رياض وصالها برد الشباب الغض وهو جديد
ويد الحوادث لم تزل منلولة عنا وطيب العيش فهو رغيد
اصغي لها ودي فيهلك بيننا كمدًا عدو شامت وحسود
فطن الزمان بنا فاصبح شملنا متشتتًا والوصل فهو بعيـد
من لي بذلك والفرات ودجلة ونهامة دون المزار ونجـد
وخطوب ذي الدنيا الدنية انها دنيا يشيب لهولهـا المولود

ان هذه الابيات تصور لنا مزيد شاعراً ملهماً متوثب العاطفة صادق القلب رقيق حواشي العبارة وصافاً يسيل الكلام من قلبه كما يسيل الزلال الصافي من منبعه الفياض فيجذبك ويحركك ويهزك الى دنيا فسيحة من الجنان والعواطف يهب عليها النسيم العليل وتهبط عليها قطرات الندى كالدموع الغوالي لتشجي القلوب وتطرب النفوس .

طيف لحسناء من بعد الكرى طرقا ... ليلاً فهاج بي الاحزان والقلقا
عجبت وهو الى جنبي يعاتبني ... ما كان احسن هذا العتب لو صدقا
هل لي برجعة عيش كنت اعهده ... (للجامتين) وبرق البين ما برقا
ايام اخطر في روض الصبا مرحاً ... ولمتي جئلة ترهو لين رمقا
وان شرخ شباب المرء عدته ... يلقي بها الوجنات الحمر والحدقا
ورب كاعبة النهدين عاكفة ... كالروض فيه فتيق المسك قد عبقا
شمس اذا غربت في ليل طرتها ... عن العيون اعارت خدها شفقا
من فوق غصن كساه الله خالقها ... من الحيا والعفاف الحور والحدقا
من بالعراق اقرت ان لي كبداً ... اضحى بنار الاسى والشوق محترقا
مقلة قد غدت من بعد فرقتها ... انساناها في بحار الدمع قد غرقا
وليس موتي عجباً بعد تأيمها ... بل كيف اعطيت من بعد الفراق بقا؟
ما هبت الريح الا بت مكتئباً ... ولا سرى البرق الا زادني قلقا
ولا تغنت حمامات اللوا سحراً ... الا ترقرق دمع العين واندفقا
صبراً على الصبر يأتي بعده فرج ... وان تضيق فيه السبل او رنقا

ما عساي لن اقول بعد الذي قلته في هذا الشاعر الملهم المرهف الحس الذي يملأ الاسماع رقة وعذوبة ويحمل النفس الى عالم من الجمال والبهاء بل ما عساي ان اقول وهذه نغمة عطرية ونغمة سماوية يطلع علينا بها فيجبرنا ان نقف امامها خاشعين وكيف لا ؟ وصور الذكرى والحنين والشعور والشوق والحب والاخلاص ووصف ما يخطر في الجوانح يتسابون امام انظارنا ويرفون باجنحة الجمال في عالم الامل والاحلام .

ذكر الاحبة بالعراق اهاج لي ... شوقاً وقد يزداد شوق الذاكر
ومرابع « بالجامعين » عهدتها ... ترهو بنيلان لها وجآذر
من كل فاتنة اللحاظ اذا رنت ... يا للرجال من اللحاظ الفاتر

بيضاء كاسة المحاسن كاعب تختال بين خلاخل واساور
اخذت من الضدين ما عرفا به من فاحم جثل وابيض زاهر
فمن الصباح لها ابيضاض ثواغر ومن الظلام لها اسوداد غدائر
لا غرو ان فرت الجلود فانما ترمي القلوب بنبل طرف فاتر
ومن العجائب ان غزلان الفلا ترمي فتقتل كل ليث خادر
ما زلت مقتنصاً لاسراب المها اومي فيأنس كل سرب نافر
وارود والبال الرحيب مضاجعي حتى تفاقم صرف دهر جائر
يا ساكني ذات النخيل عليكم بالصبر فالمحمود عقبى الصابر
لا تبعثوا طيف الخيال يزورني فاذوب شوقاً بالخيال الزائر

انها صور حيَّة وباقة من الورود ودنيا من الالحان والالوان وتموّجات رقيقة عذبة شفَّافة تستمد من نفس رقيقة وموسيقى هامسة تدخل الى شغاف القلب وتهمس في حنايا الروح وفكرة جديدة بالنسبة لعصره وديباجة فيها الاسلوب الرقيق والصياغة الشعرية الفنية التي تفخر بتسلل الفكرة واضطراد التصوير والمعاني العميقة وعمق التفكير وحلاوة الاسلوب ونجوى الخاطر وروح وثّابة سارية سريان النسيم في حقول الورود والرياحين .

افتور لحظك ام غرار يمانِ وقوام قدك ام قضيب البان ؟
وجفون عين اسبلت يوم النوى ام نرجس تكلل بجمان ؟
والحاجبان على الجبين تفوَّسا ام في صحيفة كاتب نونان ؟
وشنيب ثغر في فم ام لؤلؤ نظموه في سلك من المرجان ؟
يا ليته اسكنته في مهجتي وبباي مقدرة ملكت عناني ؟
بشقائق في وجنتيك تشقَّقت حجب القلوب شقائق النعمان
او كلَّما عاينت طيفك في الكرى وشكوت طول الصد والهجران
اوترت قوسي حاجبيك كاتني غرض لاسهم طرفك الفتَّان
يا بنت مختلس النفوس ترفقي فهواك ابعدني عن الاوطان
لولاك ما انصل السهاد بمقلتي ولما جفى طيف الكرى اجفاني
ولما رأيت من العجيب مصارعاً للاسد بين مرانع الغزلان
يا من اذا برزت ببهجة وجهها خجلاً لبهجة وجهها القمران
واذا تثنَّت فالغصون مذلة بتأيس فاقت على الافنان

بهذا القدر نختتم بحثنا عن مزيد ، واننا نرى انه من الواجب علينا القول ان شاعرنا كان راجح العقل ، ثاقب الذهن ، سمح البديهة ، حافل القريحة ، بديع الخيال متين القوافي قادرًا على استلام ناصية البقرية . جمع الاسلوب المتين القوي المجنح الذي يخترق الغيوم صاعدًا فوق النجوم بجناحي القوة والاشراق والجزالة والبيان والتصوير الصحيح الصادق المنبعث من نفس زخرت بالالم والحب والعاطفة فلم يحجب الاباء شكاتها اذا شكت او تنهنه الكبرياء احزانها واشجانها ودموعها اذا بكت .

قد اتهم من البعض بالغلو ، ولكن الحقيقة تأبى الّا الظهور ، فمزيد كان شاعرًا في حياته وعاطفته قبل ان يكون شاعرًا في ابياته واوزانه ورناته وانغامه ، واني بعد ان قرأت ديوانه ورافقت كل بيت من ابياته خرجت وانا اقول باني لم اشهد نفسًا كنفسه تذخر بالحنان وتتدفق بالعاطفة والرقة تفهم جمال الباء وترنو مفتونة والهة تتحدث عن الجمال والشراب والحسان والمرابع الآهلة بالخلان والندمان بوداعة متناهية ورقة وايمان وبراءة وعذوبة تشع بالحنان وتفيض بالقوة حتى تصير رجاء وامّلا . امّا الذكرى فتتصاعد مقرونة بالاسى فيأنس اليها القلب وتنعم بها الروح لانها صادرة عن نفس صافية مرهفة معطرة منبعثة من صميم مفعم بالنشوة والسحر والعطر وهل اجمل من شعر يذخر بجمال الاسلوب وسعة الخيال وغناء الفكرة والاشارة والصور والرقة بالنغم والقافية وجرس موسيقى يتجلى فيه البيان الصافي والوجدان الطاهر والعذوبة والمحبة والرحمة واني لست مخطئًا كما اني لا اشعر بالغلو والمبالغة والاطناب اذا ما قلت ان مزيد هو بحق امير شعراء ذلك العصر بلا منازع ورحم الشاعر القائل .

وخير الشعر ما اوحاه طبع ... فكان له بافئدة دبيب
معانيه قد انتسفت بلفظ ... يكاد لفرط رقته يذوب

هذا هو مزيد الشاعر المغمور والبقري المنسي وكم في ادبنا العربي شعراء امثاله مغمورة اثارهم في زوايا النسيان .